الباب الثانى عشر

حب الاستطلاع — الحل والتركيب — الملاحظة — التخويف — الخيال — أكاذيب الاطفال

حب الاستطلاع

يولد الطفل فى العالم فيجده جديدا عليه ، ملآن بالمستحدثات . و تمر به ظواهر الطبيعة اليومية ، وحوادث الحياة المعتادة فيلقاها بجهولة لديه ، لا يعهد أسبابها ، ولا يدرك مسبباتها . وهو يعجب من سرها الخفى ، ويدفعه العجب إلى كشف غوامضها ، والبحث عن مكنوناتها .

فإذا راقبنا طفلا صغيراً نجده قوى الرغبة فى لمس كل ما يحيط به من المحسات ، ومعرفة كل ما يجرى حوله من الأمور ، وسماع كل ما يقال أمامه من الحديث . هذا لأنه تواق إلى تفهم كنه الأشياء ، ومنهوم بالمعرفة بدافع من غريزة حب الاستطلاع .

ويتنبه فى الطفل حب الاستطلاع برؤية الأشياء الجديدة ، ومشاهدة الوقائع الغريبة ، وسماع الأصوات والكلمات غير المألوفة ، وما شابه ذلك من المؤثرات التى لا يعرفها فيعجب لها . ثم ينزع إلى فحص تركيبها وألوانها ويحاول مذاقها وتجربة صوتها إلى آخر ما هنالك من حيل توصله إلى العلم بخواصها .

وكثيرا ما يجازف الصغير بنفسه بدافع هذه الغريزة ، فيدنو من الأجسام الشاذة مأخوذا بطرافتها ، غير مبال بما قد يداهمه من خطر ، فيحدق فيها منقبا عن أصلها وشأنها ، حتى يبلغ المستور من صفاتها .

وحالما يتعلم الطفل الكلام ، يكثر من الأسئلة عن كل شاردة وواردة تأتى فى ميدان خبرته ، مستفهما عن مسميات الأشياء ، ومصادرها ، وفوائدها للإنسان ، وكيفية تكونها ، ومتناقشا فى العلة والمعلول والبرهان متجاوزا فى كثير من الأوقات حدود إدراكه ، ولكنه على وجه الإجمال ، يغير

موضوعات بحثه ، ويعدل مدى تشوفه ، ويبدل دائرة اهتمامه باستطلاع الأشياء تبعا لسير نموه . فهو يسأل مثلا لماذا يعوم البط؟ وماذا يرفع الطائرة ؟ ومن أين تأتى الرياح ؟ وكيف تدور الساعة ؟ وإلى أين يمتد البحر ؟ وأسئلة أخرى كثيرة متشابهة يلقيها علينا لفرط رغبته فى المعرفة ، وحبه فى استطلاع المعلومات .

ولهذا كانت غريزة حب الاستطلاع فى الطفل أساسا لكل مطلب فى العلم ، وباعثا لحصر الفكر والانتباه وبذل الجهد فى التحصيل والإنتاج .

فكل طفل لديه من قوتها الطبيعية أكبر معين على توسيع مداركه ، والاستفادة من بيئته فى السعى وراء الحقائق والإلمام بها . ومن هنا يتبين لنا ارتباط حب الاستطلاع باللعب — فالألعاب التعليمية التى نمد الطفل بها ، ليست مجرد وسائل للتسلية ، بل هى تصلح فوق ذلك كبواعث لإثارة حب الاستطلاع ، ولتحريك العجب والاستغراب فى الطفل ، فيكد فى نهج المعرفة بالاستزادة من الخبرة والدراية الفعلية بهذه الأشياء .

وبما أن أسئلة الطفل الكثيرة صادرة عن هذه الغريزة ، فعلينا أن نجيب عن كل سؤال منهـــا بأسلوب يكون وفق مستوى عقله ، وفى حيز فهمه ومقدور تفكيره ؛ فلا نعرض فى ردنا عليه من المعلومات إلا ما يناسب منها حالة معيشته ، وما يلائم سنه وحاجته .

وليس من الحكمة أن نعطى للطفل إجابة مباشرة عن جميع أسئلته ، إذ أن هناك طائفة منها يستحسن حثه على استنباط أجوبتها بالتقصى والملاحظة والتجربة العملية ؛ أو استخلاصها من قراءة الكتب والمجلات العلمية . وذلك بغرض إيقاظ روح البحث فى الطفل ، وكسب المعرفة بذاته لذاته ، وإحساسه بلذة الفوز فى الحصول عليها بجده وعمله . فاذا استفهم مثلا عما يحدث صوتا من دميته ، نجعله يفككها ليطلع بنفسه على الصفارة التى تسبب هذا الصوت .

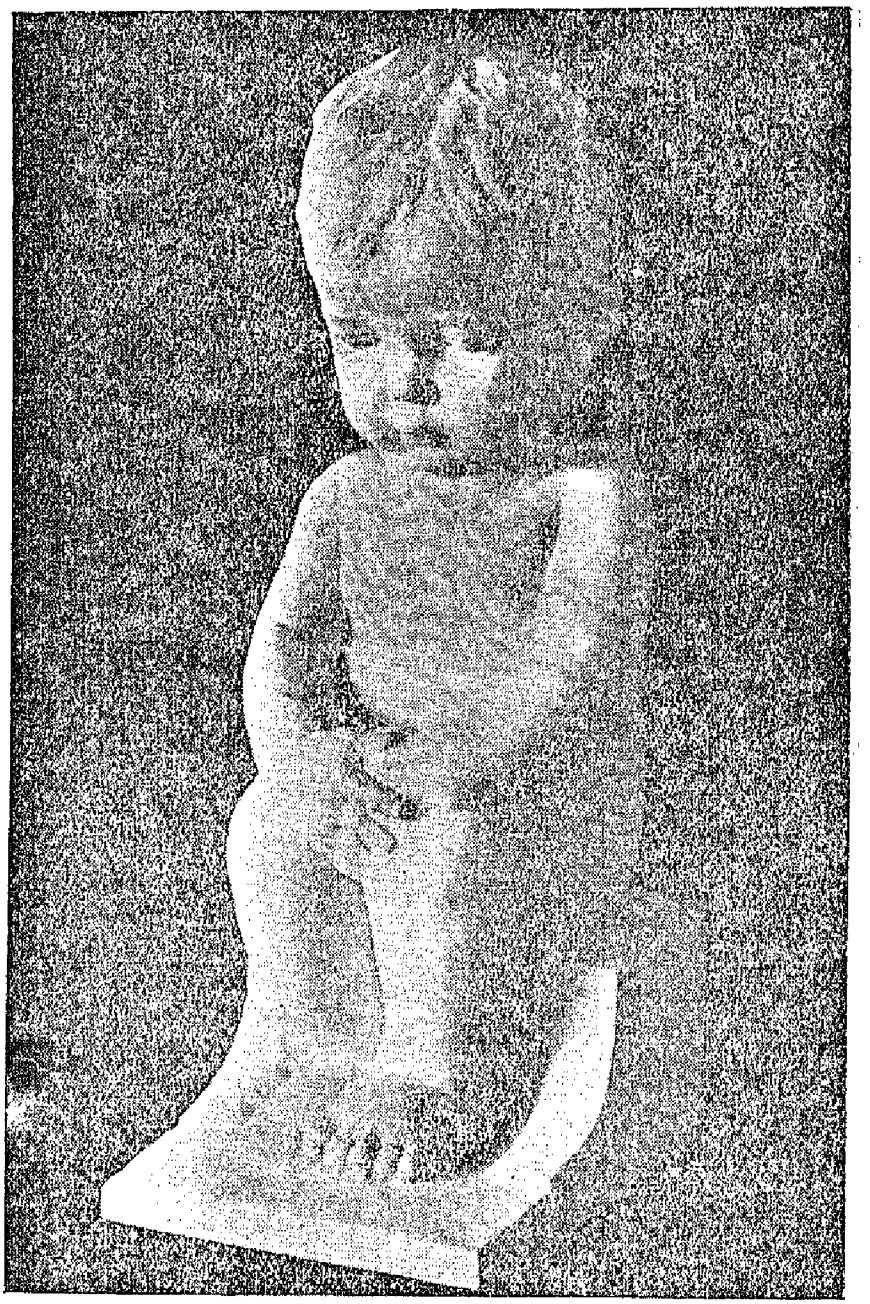

(الفيلسوف الصغير)

ومهما كانت أسئلة الطفل تافهة أو سخيفة أوغير معقولة ، فليس لنا أن نسخر منها أو نزدريها . وليس لنا فى أى حال أن نجيب عنها بفتور ، أونبدى تضجراً من كثرتها ، لأن هذا قد يمس كرامته ، فيطفئ فيه حماسة الغريزة ويضعفها ، ويجعله لا يسائل إلا قليلا . وبذلك ينشأ قاصر العقل جامد التفكير . وهناك أطفال يجدون من ذويهم إهمالا واستخفافا بأسئلتهم فيلجأون إلى الخدم أو إلى البسطاء الذين يزودونهم بمعلومات غير صحيحة . وينتج عن ذلك أن يصير نطاق معارف الأطفال ضيقا ، وتحصيلهم غير مضبوط .

وغريزة حب الاستطلاع إن قويت واشتدت ، وأغفلنا تعهدها وتهذيبها فإنها تجعل الطفل ذا ذلاقة وفضول . ولكننا بحسن الاهتداء إلى جعلها عماداً لمبنى تعليمه ، قد يصل بها أمره إلى أن يصير مبتكراً ومخترعا وكاشفاً ، إذ يسير فى جهاد متواصل وبشغف متزايد فى مسالك جديدة تقفه على جميع مناحى العلوم والفنون المختلفة .

الحـــــــل والتركيب

كثيراً ما يدهشنا من أمر أطفالنا الصغار ، ويحيرنا منهم ميلهم إلى الهدم والتخريب تارة ، وطوراً إلى التركيب والتشييد . فهم متناقضو النزعة ، من مدمرين هائلين ، إلى بناءين عظماء . وما هذا إلا لأنهم فى نفس السن التى يصبحون فيها محبين الاستطلاع . تظهر عندهم أيضاً غريزة مزدوجة يقترن فيها الميل إلى الحل والتكسير ، بالميل إلى التركيب والتكوين . فهم مثلا يبنون مختلف الأشكال من الرمل ، ثم يهدمونها مرة بعد مرة واجدين فى ذلك لذة عظيمة . وعند ما يأخذون منا لعبتهم ، يتأملونها ، ثم يشرعون فى تحطيمها وإتلافها فى بعض الأحيان . وقد يعكفون عليها منشغلين بها ، يوفقون أجزاءها ، ويحاولون إرجاعها إلى ما كانت عليه . وما رغبتهم فى تكسيرها إلا بدافع الاستطلاع والوقوف على كيفية تركيبها ، والسر الذى يحركها . ولا يلبثون أن يعودوا ينظمون قطعها ، ويضمونها بعضها إلى بعض ، بغرض تجريب أثر قوتهم فى إعادة بنائها بذاتهم . وإبراز قدرتهم الشخصـــية على التكوين .

ولهذه الغريزة من الفوائد فى تربية الأطفال ما لحب الاستطلاع والميل إلى اللعب بالمحسات . ونحن نستطيع ترويضها وتهذيب مظاهرها بالطريقة عينها التى نتبعها فى استخدام ذينك الميلين فى تربيتهم وتهذيبهم . فنعنى بتهيئة المكان الذى يكون مسرحا يقوم فيه الطفل بالحل والتركيب من غير أن يحرجه أحد أو يزعجه إنسان . فإن وجدت بالبيت حديقة ، خصصنا جزءاً منها للطفل حيث يستطيع أن يشتغل بفلاحتها فى أحيان كثيرة . ذلك إلى جانب النصيب العظيم من الاهتمام الذى يعطيه المربى لإرضاء هذه الغريزة أيضاً ، بتوفير القوالب المختلفة وكميات الرمل وكتل الصلصال والورق الملون والبكر

(الانهماك فى التركيب)

والفل وخامات الأعمال اليدوية وأدوات الرسم والتصوير وبعض من سقط المتاع كالصناديق الفارغة والأدوات المستغنى عنها وغير ذلك من المواد التى يسهل على الطفل استعمالها فى إنجاز ما يريد صنعه ، مثل إنشاء النماذج للمنازل والمآذن والقناطر ، ولأنواع الأثاث الصغيرة والحيوانات والطيور والفواكه ، ولمناظر الشواطىء والمزارع والمدن ، إلى آخر ما هنالك من أشكال

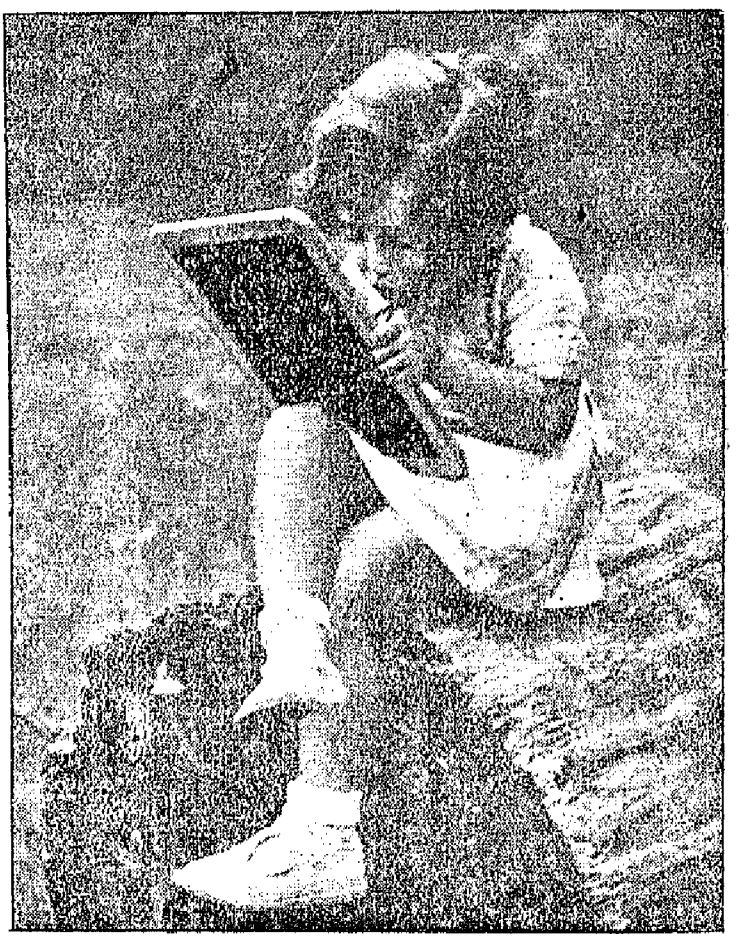

(التكوين بالرسم)

يواصل هدمها ومعاودة بنائها ، فيؤلف من جديد طرقا لتحسينها بصيغة أفضل فأفضل ، إلى أن يحكمها بإتقان .

هذا وإن ما يجب أن نحذره فى رعاية هذه الغريزة هو ألا نملى على الطفل كيفية حل لُعَبه أو تكوينها ، فإن ذلك يضعف فيه قوة التفكير

والإبداع . ويحسن بنا دائماً أن نتركه وبداهته ليعبر عن قدرته الفردية الإنشائية بنفسه . وما علينا إلا أن نبعده من دون أن يشعر عن أعمال التدمير والتخريب إلى مشروعات الترميم والبناء ، فنقوم بإمداده بمواد الإنشاء الأولية قبل أن نعطيه اللُّعب المركبة القابلة للتكسير . فبهذا نستهويه إلى إنتاج عمل طيب يشعره بسرور النجاح بما فى مقدوره من قوة فعالة ، ونغافله عن بواعث الهدم

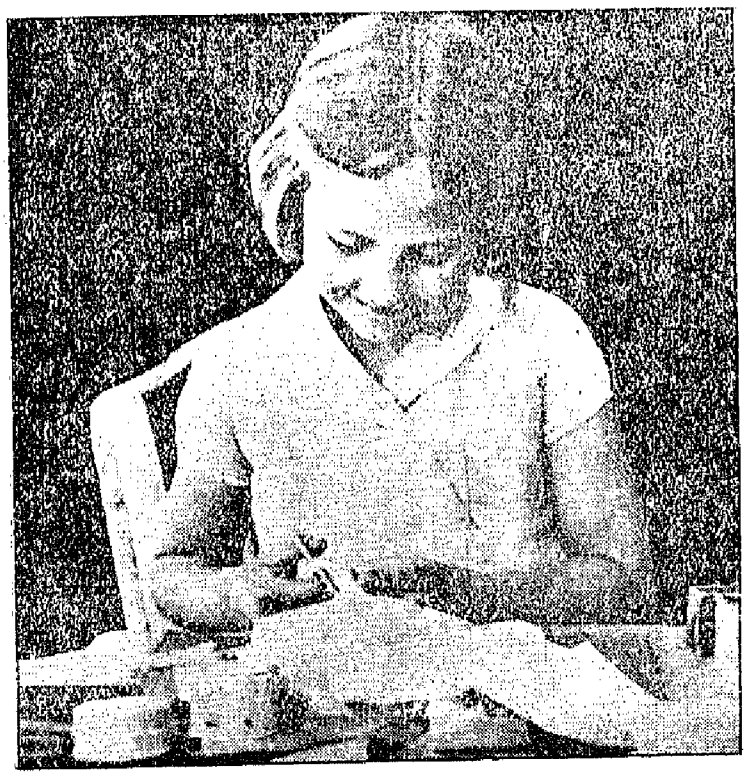

(السرور بالعمل)

والتخريب والإفناء . وهكذا يترعرع فى المجتمع فرداً عاملا ومنشئاً لا مخرباً ولا مهلكا .

وكثيراً ما يتبرم الكبار لنشاط غريزة التخريب فى الطفل ، فيغضبون عندما تدفعه إلى إفساد الأشياء أو تدميرها بحيث لا يمكن إصلاحها أو ردها إلى أصلها . لذلك وجب أن نحضر له لعباً رخيصة لا تثقلنا خسارتها إذا ما قطعها أو خربها . ويخطىء كل من يعاقب الطفل على ما يتلفه أو يبيده من اللُّعب ، لأن هذا

يحمله على كبت نداء هذه الغريزة ، وإغفال دافعها فيشل فيه قوة النزوع إلى حلها لسبر حقيقتها واحتذاء نماذجها ، وبذلك تنقص الاستفادة من هذه اللعب ، ويقل أثرها فى تربية حواس الطفل ومداركه ، وتنمية قوى التفكير والابتكار عنده .

الملاحظة عند الأطفال

فى محيط الطفل الصغير أشياء كثيرة يلزمه الانتباه إليها وتلمسها بحواسه ليحيط بها خبرا ، ويلم بما يتعلق بها إلمام علم ومعرفة ، ثم يصور منها صورا واضحة تتميز بها ، وتبقى فى ذهنه واضحة تعينه على إدراكها والإحاطة بكنهها عندما ترد عليه فى سبيل حياته .

وحصر الانتباه فى جسم من الأجسام ، أو توجيه قوى العقل إلى واحدة من ظواهر الأعمال بغية زيادة الإلمام بها هو الملاحظة . فالطفل يلاحظ شيئا ما إذا وجه إليه اهتمامه ولفت إليه حواسه بصفة خاصة لتوسيع معلوماته عن شكله وحجمه ولونه أو تعرف عناصره وصفاته ومسلكه ، أو فحص عوارضه الناتجة عن المؤثرات غير الظاهرة للعيان ، أو غير ذلك من أوجه الاهتمام بالبيئة التى يعيش فيها .

والملاحظة فى الطفل هى العماد فى نمو عقله ، والأساس الذى يبنى عليه علمه ، إذ أنها الأصل فى استجماع الحقائق وإكثارها وتثبيتها فى وعيه ، فتتخذها الذاكرة والخيال والحكم والتعليل والتفكير ليقيم كل منها على قواعدها نشاط أعماله المختلفة . وكلما كانت الملاحظة قريبة من حقيقة الأشياء ملتصقة بالواقع من الأعمال ، كان الإدراك المبنى عليها صحيحا ؛ وعلى العكس

إذا كانت قوة الملاحظة فى الطفل ناقصة ، فإنها تسبب قصور إدراكه وخمول تفكيره .

وتربية الملاحظة فى الأطفال تساير تربية الحواس وتتمشى فى خطتها مع اللعب وحب الاستطلاع والحـــل والتركيب فجدير بنا إذن أن نقويها فيهم وهم صغار حتى يزدادوا بحثا وتأملا فى الأشياء على توالى نموهم ، وحتى

(الطفل بين الطبيعة)

يتعودوا الدقة وحصر الفكر وهم كبار . فملاحظة اختلاف الأشكال ، وتموجات الصوت وتدرج الألوان مثلا ، ينشىء الطفل على حب التوازن والوفاق وتذوق الجمال فى الأشياء فينمو فنانا مهذبا ، وحساسا رقيقا . وضبط

(التأمل فى الطبيعة)

النظر وتدريب اليدين فى تلمس الأجسام ، تكسبه الدقة اللازمة فى إحكام الحرف والصناعات المختلفة . وتنبيهه إلى إدراك مقاسات الزمن والمسافات وقيمة الأعداد ، يمهد إدراكه لدروس الحساب . وباستكمال مقدرته على الملاحظة والمقابلة بين الأشياء المادية ، يزدهر فهمه وتعقله للمعانى النظرية .

وأول ما يوقظ الملاحظة فى الأطفال الأشياء التى تتعلق بذواتهم . لأن الإنسان يميل بطبيعته إلى الاهتمام بكل ما يتعلق بذاته . وإزاء هـــذا فان مقدرتهم على الملاحظة تكون مقصورة فى أول الأمر على تبيُّن أمهاتهم أو مرضعاتهم ، ومحدودة فى دائرة غذائهم وزيهم ولعبهم .

وأشد مايلاحظ الأطفال أيضاً الأشياء الجذابة والمتحركة . فهم يدققون النظر فى الألوان البهية والأنغام المشجية والروائح الشذية والحركات المتغايرة ، إذ تستحوذ على انتباههم فيقتربون منهـــا ، ويتفحصونها بكل جهودهم . والأطفال فى بادىء أمرهم يلاحظون الأشياء متسرعين بغير دقة ، ومضطربين بغير ثبات . وذلك لأنهم لا يقوون على حصر فكرهم فى شىء واحد لأمد طويل . فانتباههم يتحول من عمل إلى آخر ، ومن شىء إلى شىء بسرعة لقلة ما لديهم من معلومات ، ولعدم الترابط بين هذه المعلومات. ومن أجل هذا كثيرا ماتكون مدركاتهم مغلوطة وناقصة ، وملاحظاتهم غير صحيحة . وهنا يجب التدخل لإرشادهم إلى الملاحظة على وجه التمام ، فنعودهم الإمعان فى النظر عند تحليل تفاصيلها ، وموازنة حالاتها وتمحيص حقيقتها بروية لتصحيح أخطائهم واستيفاء معلوماتهم .

وتدريب الطفل على الملاحظة لا يقف عند تعويده أن يركز انتباهه فيما يروم من الأشياء التى توجدها أمامه ، بل يتعدى هذا الحد : إذ يجب أن نجعله يسعى نحو غاية معينة تحثه على حصر مجهوداته ، وتنسيق خطته للتوصل إليها وإتمامها

بأعظم مقدار من الدقة ، كأن ندربه على ملاحظة الألوان بتلوين الرسوم والصور المختلفة ، وتفريق الأصوات بتوقيعها وإنشاد أنغامها ، وتمييز الحركات بتمثيلها واللعب بمحاكاتها ، وتفحص الأشكال وترقب الحوادث بمطالعة الكتب المزينة بالصور ، والقصص الموضحة بالرسوم ، ودراسة طبائع الحيوان وخواص النبات بتربية الدواجن وتعهد الحديقة وجمع نماذج الأزهار وأوراق الأشجار وريش الطيور والأصداف والصور المتنوعة وغير ذلك مما يثير فيه النشاط والحيوية .

وفى أوقات النزهة وخروج الطفل إلى الحدائق أو للتجوال فى المدينة مناسبات لها أهميتها فى توجيه ملاحظته إلى شتى الأشياء توجيها مفيدا . ولا يمكننا فى بعض الحالات أن نستعيض عنها بأية وسيلة من الوسائل أو التمرينات الشكلية ، لأن هذا يطلعه على حقائق الطبيعة وشئون المعيشة الخارجية فى أثناء ممارستها فى ظروفها الفعلية بلا تكلف ؛ فيعثر على معلومات عنها ، ويقارنها بعضها ببعض ، ويصدر حكمه فيها بها . وهكذا يتعود السير فى الحياة وهو مرهف القوى يترقب دقائق الأمور ويلاحظ كل ما يحدث حوله .

التخويف وأضرار القمع

وطرق التغلب على مخاوف الأطفال

لشد ما يخاف الطفل الصغير ، وما أكثر ما يفزعه من مخاوف فى السنين الأولى من حياته . فهو يذعر عند رؤية الحيوانات الكبيرة ، ويجزع من ملمس فرائها أو قرونها ، ومن منظر الدم والأسنان الكبيرة ، ويضطرب من الأشكال والأشباح والأشخاص الغريبة ، ومن الأصوات والحركات المباغتة التى لا يعرف مصدرها ، ومن الأماكن غير المعهودة ، ومن الظلمة والرعد والبرق والماء الكثير ، ومن كل شىء مجهول لا يمكنه إدراكه أو التحقق من محتوياته . فيثير فى نفسه الوهم بوجود المهالك . وهو أيضاً يخشى الألم وتوقع الزلل . واذا أمعنا فى النظر لدى جميع هذه المخاوف ألفيناها بقية آثار فى نفسه لتلك الأهوال التى أفزعت جدوده الأوائل فى فجر تكوينهم ، حينما كانت الحيوانات المفترسة وغارات الأعداء وقوات الطبيعة المختلفة ، تهدد كيانهم بالأذى والعدوان ، وليس لهم مأمن يحتمون فيه منها ، وليس لديهم معرفة بأصولها العلمية حتى يطمئنوا إلى أسبابها .

ولهذا كان الخوف وما يتبعه من الفرار هرباً ، من أهم غرائز المحافظة على البقاء فى الإنسان ، ومن أعظم وسائل اتقاء المخاطر التى تحيط بحياته .

وعند ما يستولى الخوف على الأطفال ينطلقون مسرعين نحو أمهاتهم أو ذويهم متعلقين بهم ، ويخفون رءوسهم ووجوههم ، ويتوارون بين ثنيات أثوابهم ، طلباً إلى الاحتماء بهم من الضرر الذى قد يقع على حياتهم .

وينتابهم فى أثناء رعبهم ، ارتجاف الجسم ، وخفقان القلب ، وامتقاع اللون ، وتصبب العرق ، وبرودة الأطراف ، ووقوف شعر الرأس ، والبكاء . وينتج

عن الخوف الشديد جمود الفكر، ووقف الانتباه على الشيء المخوف ، وشلل الحركة ، وفقد الإحساس . وفى حالات الفزع القصوى قد تقف حركة القلب فيموت الطفل هلعاً .

وقد تترك الأعراض السابقة أثرا مستديما فى الطفل ، فتضر بجسمه وعقله وخلقه ضررا بليغاً . ولذا وجب علينا تقليل الخوف وإضعاف حدته ، وتنشئة الطفل على أن يكون بريئاً غير متهيب ، وجسوراً لاقتحام مخاوفه ويكون ذلك بالعوامل التى تضعف بواعثه الطبيعية وأهمها : —

(١) هدوء البيئة وسيادة النظام فى المعيشة بحيث تخلو من الضوضاء العالية ، وأنواع الصياح المفاجئة . والأثاث المرتبك ، والزوايا المهجورة حتى يظهر كل شيء واضحاً لدى الطفل فيسهل عليه التحقق من غوامضه .

(٢) تقريب الطفل من الحيوانات التى لا تؤذيه ، مثل الكلب والقط والعصافير الصغيرة والسلحفاة والأسماك الحمراء ، وغيرها من الحيوانات التى يمكن أن يصاحبها ويداعبها ؛ ومقابلته بأصدقاء الأسرة حتى يأنس اليهم ويألفهم .

(٣) سرد القصص المستحبة عن القوى التى قد يخافهـــا الطفل كالقصص الدينية ، وأساطير الطبيعة التى تشرح لهم هبوب الرياح ، وشروق الشمس وغروبها ، وتوالى الليل والنهار ، وحدوث صدى الصوت والرعد والبرق ، وحكايات عن أنواع الحيوانات ومعيشتها الخارقة فى الأدغال ، وعن أجناس البشر وغير ذلك مما يفهمه كنه المجهول ، ويجلو له سر مخاوفه ، فيقتنع بأنها على غير أساس ، وبذلك تستنير بصيرته ، ويتحول خوفه الغريزى الى الحذر والتبصر فى عواقب الأمور .

(٤) تمثيل الشجاعة له بالقدوة فى الإقدام وعدم التهيب وتجنب مظاهر

الخوف أمامه أو التصريح به أو التفوه بعبارات الذعر والانزعاج التى قد يقتبسها أو تثير انفعاله .

وبما أن لمخيلة الطفل شأناً عظيماً فى خلق مخاوف مروعة يتصورها بنفسه ، فيجب إبعاده عن دواعى المغالاة فى تخيل المخاوف المزعومة ، وتجنب إلقاء الحكايات المزعجة التى تقلق راحته بطيف الجان والمارد والغول والوحوش وصور الحوادث المرعبة ، والنفوس الشريرة وما إلى ذلك ، مما يتسلط على عقله ، فيفسد ابتهاجه بالحياة ، ويسبب شقاءه الدائم .

وإن توعد الطفل بالحبس فى الظلام ، والحرق بالنار ، ورميه فى البحر ، وبتسليمه لخلائق شنيعه غير معقولة ، نصورها أمامه لتفتك به فتفزعه ، ويعمل على التخلص منها بالإذعان لما نفرض عليه من الأوامر والرغبات وغير ذلك من وسائل التخويف ، إن هذا لمن أسوأ طرق التربية والتأديب . وذلك لأننا نزيد من وطأة الخوف عليه ومن شدة التخيل الفظيع ، فنسلمه الى قبضة الهواجس التى تخالج نفسه ، فتتعس حياته ، وينتاب أعصابه الضعف ، فيغلب عليه الجزع والتردد وعدم الثقة بنفسه وبغيره ، وتتولاه الريبة فى عطف والديه ويعيش مذعوراً منهما ، لا آمناً إليهما .

وكثيراً ما يبوح الطفل إلينا بما يختلج فى صدره من المخاوف ، فنحاول أن نسرى عنه بتصغيرها لديه ، أو باظهار الاستخفاف بها ولكن هذا لا يبددها من فكره ، ولا يقنعه بالنجاة منها ، بل قد يمس إحساسه فيستاء منا ولا يعود يعترف بها ، وإنما يحفظها فى داخله ويكتمها عنا . والكتمان يقوى الخوف فى نفسه ويرهق قواه الجسيمة والعقلية . وقد يتمكن منه أثره فتصعب عليه مغالبته بعد ذلك .

فالإرهاب يعجز إرادة الطفل عن أداء الخير ، ويجعل باعث الصواب

فيه عن ذلة وجبن . وهذا يحتم علينا العدول عنه كلية ، وتهدئة روعه بوداد وعطف حتى ينشأ هانئاً مطمئناً إلى الحياة .

خيال الأطفال ومميزاته وأكاذيب الأطفال

إن من ضمن عناصر الجاذبية فى شخصيات الأطفال خيـــالهم الثائر الفيـاض ، الذى تدور حوله جل أفكارهم وآمالهم ورغباتهم ومخاوفهم وأحاديثهم وألعابهم

فالطفل يغمض عينيه ليجول بذهنه فى عالم الخيال ، ثم يفتحهما عن صور قد ألفها على قوائم من ذكرياته السابقـــة لمدركات معهودة ، ويزهو بتصويرها واضحة ملموسة ، ويرويها لنا فى قالب من الوصف مماثل للحقيقة والواقع . وهو بين الثالثة والثامنة ، يكثر من تصوراته الاستحضارية هذه . ويكون خياله فى البدء مرتبطاً بألعابه ، ثم يزيد ويتسع عند مايلعب بالدمى و« العرائس » ، إذ يطعمها ويتعهدها ويقوم بجميع حاجيات معيشتها ، كأنها حية ترزق . ويدخل على خيال الطفل مع اضطراد نمو إدراكه واتساع نطاق معلوماته ، بعض التغيير والتنميق والزخرف الوضاء ، ويبرزه لنا أحلاماً جلية خارقة مدهشة ، مطلية بشتى المشوقات ، يحادثه فيها الحيوان ، ويلاعبه الجماد وتضاحكه الأزهار ، وتسابقه الأشباح ، فيظن النبات يبكى إذا رآه مغطى بالندى ، ويتخيل السماء تذرف دموعها أمطاراً ، وهكذا يخرج كل منظر اعتيادى من دائرة خياله فى صورة طريفة . وهو فى نفس الوقت يميل إلى سماع الحوادث والقصص التى تحتوى على الخيالات الغريبة ، بما فيها من المجازفة فى المآزق الوعرة ، والمخاطرة مع الوحوش ووسط النيران ، وغرائب الشذوذ فى سرعة الطيران والانتقال ، وعجائب البطولة والانتصار ، ومعجزات إنطاق الجماد

وتجلى الإنسان فى أجسام البهيم ، وغير ذلك مما لا حصر له من خرافات المآثر فوق العادية .

وفى هذا الطور ترتسم الصور فى عقله صافية وحية ومجسمة ، لدرجة أن أمرها يلتبس عليه ، فلا يستطيع التمييز بين واقع الحقيقة والخيال . وهنا ينطلق يحدثنا عن خياله ، ويشرد بنا فى تيه أوهامه ، وهو لا يقدر أن يفرق بين ما قد حصل فعلا وما يتهيأ ، فيخلط بين الرؤيا واليقين ، وهكذا يقع فى كثير من الأكاذيب غير المقصودة .

ومن خداع الخيال فى الأطفال ، أنهم يأخذون بناصية الأشياء من حيث يريدونها أن تكون ، ولا يأبهون بها كما هى ظاهرة للعيان . فيكسبونها صفات ، ويكيفونها بحالات ، ويلصقون بها أعمالا بعيدة عن حقيقة أمرها ولكنها توافق أهواءهم ، وكأنهم يتعمدون التضليل والبهتان . وهناك ظاهرة أخرى لخيال الأطفال الواسع الغزير ، وهى اتخاذهم صحابة من الأصدقاء الموهومين أو المجسمين فى الجماد والحيوان والنبات ، فيمجونهم معهم فى ألعابهم وأحاديثهم ، ويشركونهم فى طعامهم وأعمالهم ، ويصبون عليهم عواطفهم المتقدة وشعورهم المتأجج ، ويمثلون معهم أدواراً يفقدون فيها شخصيتهم كلية ، وقد ينسون أن هؤلاء الأصدقاء من تكوين خيالهم فيستاؤون إذا عوملوا على حقيقتهم .

هذا هو خيال الأطفال كما نرتئيه مع ما فيه من إفراط وتلفيق وهذيان ، وقد يتبادر لنـــا وجوب استئصاله حتى نأمن الشر الذى قد يرتكبونه من جرائه .

ولكن قد اتضح لجميع المربين أنه من أعظم العوامل لتربية الخلق . فالطفل الذى يمثل دور الأمير والفارس والجندى ، يشعر فعلا بنبالة الأمير وشجاعة الفارس وحماسة الجندى ، ويرتفع إلى مستوى عظمة كل منهم . وكم من أعمال

الظلم والقسوة تنشأ من ضعف الخيال الذى يعجز صاحبه عن أن يضع نفسه فى مركز غيره ممن يقاسون الظلم والعدوان .

فالخيال الخاطىء إذا تعهدناه ، ينتقل من دور الحماقة إلى دور المعقول والعمل والإبداع . ويصير بذرة لسمو النفس وصفاء الوجدان ، ومصدراً لوحى الألفاظ والأنغام ، ولتصوير المعانى والأشكال فى كساء من الرقة والرشاقة والبهاء . ومما يحكى عن واحدة من الشعراء لما كانت طفلة بلغت ، من حدة الخيال ، أنها وهى سائرة فى الطريق ، كانت تنقل الحصى الذى تعثر عليه من مكان إلى آخر متوهمة أنها بذلك تسهل لهذا الحصى تغيير المناظر التى تحيط به من يوم لآخر . فالمخيلة هى عين العقل التى نرى بها غير المنظور فى المنظور ، ونقدر بها الجمال المستور فى الأشياء العادية بل إنها بصيرة الإيمان بالقوى الخفية ، وإدراك الممكنات المدخرة فى بواطن الأمور ، وأساس الابتكار والمخترعات الإنشائية الجليلة .

وإذا كان للمخيلة هذا القدر من الأهمية فى تكوين النشء وتربيته ، فكيف إذاً نوفق بين تنميتها وتهذيب النواحى غير المستحبة منها ؟ نرى أن هذا ممكن بمراعاة ما يأتى :

أولا — لا يجب التسليم للطفل بالتمادى فى تصوراته وتخيلاته الكاذبة ، كما أنه لا يصح مواجهته بالتأنيب ، أو اتهامه بالمخاتلة والخداع . بل يحسن بنا أن نستمع أولا إلى مايرويه علينا من تأليف خياله ، ونبدى له حسن الإصغاء والاهتمام ، حتى نعرف خواطره ومطامحه ، ثم نوقفه عند الحد المعقول منها ، ونوجهه فى طريق الصواب بمطالبته أن يسرد حوادث أخرى واقعية من مشاهداته ، ليتنبه فى أثناء إلقائها إلى الفرق بين إنتاج خياله ، والصحيح المثبوت بالحس ، وغير المرتاب فيه . وهكذا بالتدريج ينبذ أكاذيب تصويره ، فلا تلبث

من خيال الطفل الشارد

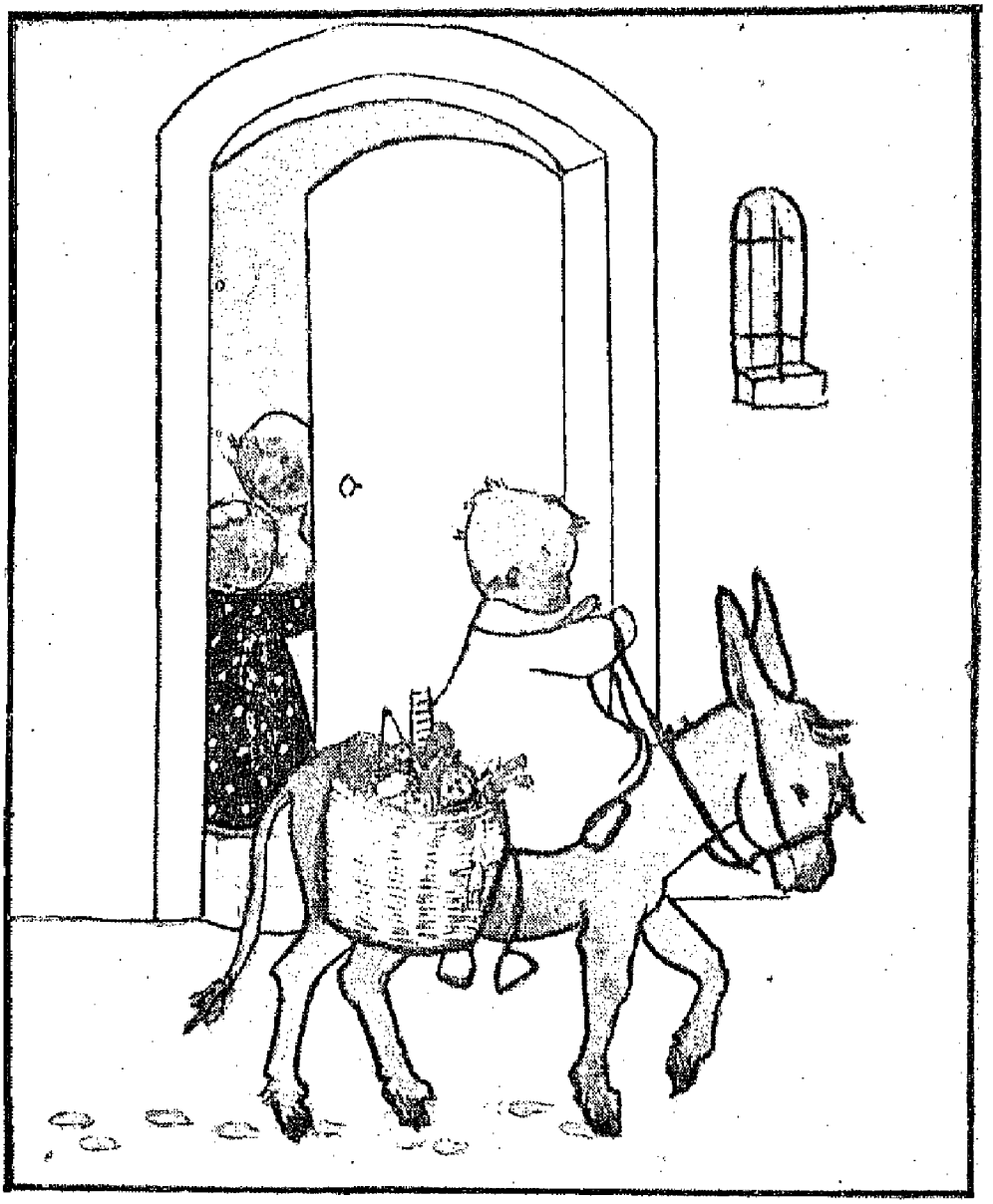

الفارس الصغير يتباهى بكنوزه

أن تتضاءل فى ذهنه حتى تختفى ؛ بينما تتعمق آثار الصدق فى نفسه ، وتتلألأ ببريق الحق والجمال .

ثانياً — تتعاون مع الطفل على تنسيق تخيلاته باطلاعه على الصور الجميلة الشائعة . فنوجد له الرسوم الرمزية ليشرحها بتصنيف خياله ، والكتب التصويرية ليصفها بلغة بيانه ، والحكايات المصورة ليصيغ حوادثها بنسيج عبقريته ، والدميات والتحف المليحة ليوشيها بطلاوة أفكاره .

ثالثاً — نسهل للطفل الاتصال ببنات الطبيعة وشواهد حياتها ، فيلمسها بيد العلم والكياسة ، ويتخذ من مظاهرها مادة تملأ مشاعره بالسرور ، وألفاء حقيقيين يبعثون السلوة فى نفسه ويأخذون بمجامع قلبه .

رابعاً — نفسح المجال للتخيل العملى ، بشغل الطفل فى التعبير عن مشروعات خياله بالرسم ، أو تشكيلها بعمل المناظر المأخوذة من الحكايات والأحدوثات والأحاجى والوصف البهيج البسيط ، والتى تشجعه على تصميمها ، وترغبه فى السعى لتحقيقها .

خامساً — نقرأ على الأطفال مختارات فى متناول فهمهم من صحائف آداب اللغة والشعر السهل الرائع ، ونسمعهم مقتبسات من القطع الموسيقية والنغم الجميل ، ونحفظهم مقطوعات ملحنة ، وبعض حركات إيقاعية لتمثيل ماينطوى تحتها من المعانى المشتقة من تفتح الأزهار ، ويقظة الربيع ، وتغريد الطيور ، وتناوم الخشخاش ، وشمائل الحيوان ، وغير ذلك من الأوضاع التى تشعره بلذة الخيال الراقى ، والإبداع فى التفنين .

سادساً — نلقى على الطفل الأقاصيص والأساطير التى تحتوى على أبهج الحوادث والتى تكفى حاجة الطفل وتأخذ بيده إلى المثل الأعلى ، وتوضح له منشأ المعرفة بالأشياء وسر غوامضها .